نفحة شرقية

فى أدب غربى

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

كان شاعر الالمان « جوته » يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق وشعره . فدرس العبرانية ولدمن مطالعة التوراة . وكان يهتز لها لما يجده بها من أريحية الشعر ، وبخاصة «قصة راعوث» و«نشيد الأناشيد» . وهو يعتبر النشيد نسيج وحده فى الرقة وحرارة الحب ، وكان يستروح منه نسمة دافئة تهب من بقاع كنعان ، وتترامى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيوب العاطرة . ويأنس من بعيد زحمة المدن ببنى اسرائيل ، وفيما وراء ذلك جميعه يتخيل ديوان سليمان وأبهة ملكه .

وينتقل جوته من العهد القديم العبرى ، إلى عصر الجاهلية العربى . حيث يقع على الكنوز المذخورة فى المعلقات . تلك القصائد المطولات التى أحرزت الفوز بميدان النزال الأدبى فى أسواق الشعر عند العرب . وهو يتمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين ، لا يبرحون فى غارات إثر غارات ، يؤججها مابين قبائلهم من ترات وخصومات . ويقول شاعر الألمان إن المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التى تربط أبناء القبيلة الواحدة ، وعما انطبع عليه العرب من روح الاقدام والبسالة ، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثار ، وطلاب المجد ، والتماس الفخار . وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدى هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها ، بما يبثه من الأسى والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء . ويزيد هذه القصائد العصماء قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلمسها القارىء ولا ينكرها

على أن الذى شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد . وغير خاف أن العالم المسيحى كان من أيام الحروب الصليبية سيء الرأى بطبيعة الحال فى صاحب الشريعة الاسلامية . وكانت الكنيسة تتجاهل وجود القرآن وتحرم ترجمته ، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع عشر ، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائما بدحض ما جاء به وتفنيده . ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة ، وحرصا على تزكية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم . ثم بزغ على الأثر عصر الشك ، أو ما يسمونه عصر النور . وكان دعاته يحملون على الأديان كافة حملتهم الشعواء ، ولا يريدون أن يروا فى أصحابها إلا دجاجلة مغرورين يزعمون للناس أنهم ملهمون . إلا أن الاحوال تعدلت ، وانبرى بعض المحققين من جهابذة الغرب الى هدم التخرصات المنسوبة إلى محمد فى العالم المسيحى ، وكشوا سيرته الشريفة بروح عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق فى الموضوع فانجلى لكل ذى عينين محمد رجل الدين ، الثابت اليقين فى الله الواحد الأحد ، وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصى الهند إلى ربوع الاندلس . واطلع شاعرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد ، وحيا فيه النبى العظيم والروح القوى الأمين ، حاطم الأصنام الداعى إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع مختارات منه مأخوذة عن الترجمة الألمانية . وظل طويلا يمعن فى درسه إمعان الباحثين . وهو يشير إلى أن القارىء الأجنبى قد لا يحبه لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب اليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز فى بيان تعاليم الدين « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالاخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة . ولا يرى جوته فى هذا الترديد والتكرار مايراه النقاد الغربيون . لأن النبى لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتنويع فى ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وادخال الطرب على الاسماع والاذهان . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وإنما هو نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها . فالكتاب العزيز أنزل ليقتضى الناس الخنوع والايمان ، لا لمجرد المتعة والاستحسان ، واذا ما عرض للقصص فليس المقصد الأول هو التاريخ والاخبار ، وإنما ضرب الامثال للموعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تأليف قصة تمثيلية عن محمد ، وشرع فيها من أيام شبيته فنظم منها مناجاة للنبى وهو بالليل وحده فى الخلاء تحت السماء

الساجية السافرة النجوم . وقد اقتبس فيها هـذه الآيات فى دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؛ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ، حنيفاً وما أنا من المشركين » . ثم أدار جوته حوارا بين محمد ومرضعته حليمة . كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « على » ، وزوجه « فاطمة » بنت الرسول . وهو تصوير رائع لقوة هذا الانسان المبعوث من عند الله ، ووصف شعرى لفيض الاسلام وسرعة ذيوعه ودخول القبائل والأمم فيه أفواجا أشبه ما يكون بالنبع فى الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاد ، ويزخر بما ينصب فيه من الروافد فيتسع مجراه وينتظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم تزل فكرة هـذه الرواية ماثلة فى مخيلة جوته حتى وضع مشروعها . وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعداً إلى الله تعالى الذى تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده . ويكاشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين . ثم فى الفصل الثانى يقوم النبى يناصره على بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلقى العطف من فريق ، والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وما ركب فى جبلته . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة . وفى الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ويطهر الكعبة من الأوثان . وتستوى دعوته دينا مقررا ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسى إلى جانب الرجل الدينى . وفى الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها . والفصل الخامس والأخير يبلغ فيه محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية . ثم تعاوده عقابيل السم فينقل إلى جوار ربه . . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع ، مما نأسف له شديد الأسف .

وقد كان جوته فى مدينة « ويمار » — وهى الآن تكريما له عاصمة الريخ الألمانى — حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهور جيادهم ، ونزلوا بها ، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة . ولا تسل عن فرحة جوته بهم وحضوره صلاتهم واستماعه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم فى المسرح . وهو يذكر فى هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكارا باقيا . ويبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها ، ويغتبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمين إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذى عرفه وأحبه فى الشرق ؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعاً وأى مقنع . ولكن الرجل أبت له نفسه الرحيبة ألا يجتمع فيها الشرق السامى والشرق الآرى كما يقولون : شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم ، وشرق الهند والفرس

فقد أقبل الرجل يتعرف إلى المثات والمئات من آلهة الهند ويشهد فى التهاويل والصور أوثانهم الهائلة المخيفة ، واطلع على مطولات أساطيرهم ، واحتار بين أناويه مذاهبهم ، وتعجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم ، والتقاء الحضيض بالسموات فى نظرهم . وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الآله والراقصة) و(موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما

وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (بيدبا) التى وضعها للملك (دبشليم) على ألسنة الحيوان ، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الغفيعة ، ونفور أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة . أما هذه الحكايات عن كليلة ودمنة فهى تقع موقع القبول عند الناس أجمعين ، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما انطوت عليه من الحكمة العملية والخبرة بالحياة .

وكان شاعرنا الالمانى فى ذلك الآوان قد أوفى على الستين . ولكنه مجدد الشباب أبداً كالخالدين . وقد اختار لمطالعه الأخير أدب فارس ، أدب الجنات والبساتين ، أدب الورد والبلابل ، والحب الحسى والوجد العلوى . ولقد استغرق جوته فى هذا الأدب ونسى عالمه الخارجى وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين ، وقد اتخذه صاحبه ومرشده الدينى فى هذا الجو الشرقى المشبع بالمتعة والحنين . وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازى أرق شعراء الفرس الغنائيين .

وزاد اعتزال جوته لما حوله ، وأبعد بفكره وأمالا بعد أميال ، وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازى أبواب الشرق ، الشرق مهد الانسانية ، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . فتخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، الى الوحدة والبساطة .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوتة عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى. حياة حياها هو أيضاً، حياة نفس تتقبل الوجود بمنتهى الحرية والمتعة، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها وبين الأرض. وتواجه التعصب والجمود بالتصوف الحي والاحساس بالشمول. لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ. الممالك تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منهما غير الغناء بنجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة. وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية — هذا أمام تيمورلنك، وهذا أمام نابليون، فلا تنخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب. إن جوته لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من اعماق نفسه. فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر. إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين. وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني، يحس بالشرق والغرب يلتقيان فيه. وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس هو «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي».

وأبواب الديوان اثنا عشر باباً؛ وهذه هي باسمائها الشرقية على الترتيب: كتاب المغني. كتاب حافظ. كتاب العشق. كتاب التفكير. كتاب السخط. كتاب الحكمة. كتاب تيمور. كتاب زليخا. كتاب الساقي. كتاب المثل. كتاب الفرس. كتاب الخلد. وفيما يلي ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار:

نشيد الهجرة

«الشمال والغرب والجنوب أقطارها تتناثر بدداً، وعروشها تنثل وممالكها تنهار. فهاجر وامض إلى الشرق الطهور، تستروح الطيب من الآباء الطيبين. وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك ريعان صباك كأنما تضع عليك من نبع الشباب السرمد الخضر عليه السلام.

«هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الانسانية الأولى. إلى الأزمان التي تلقى فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض. فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهنا. إلى تلك الأزمان التي كانوا فيها يبجلون السلف. وينهون عن كل دين غير دينهم

«أريد التملي من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود: فكر قانع وإيمان واسع

«أريد معاشرة الرعاة في المتجعات، والاسترواح في ظلال الواحات، والارتحال مع القوافل متجرا في الطرح والبن والمسك، طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضر

«وسيان أنجدت أو أتهمت، فان أغانيك يا حافظ تؤنسني في وعثاء السفر، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذا طربا، وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى، ويرهب قطاع الطريق

«هناك في الشرق في ردهات حماماته وبين جدران خانه، أريد أن أذكرك يا مولانا حافظ وقد رفعت حبيبتي خمارها، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر

«وليعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره، والذين تطوع لهم نفوسهم التعريض بهتانا بكفره، أن كلمات الشاعر لاتبرح حائمة حول جنة الخلد، طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود»

تعويذة

«لله المشرق، ولله المغرب، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا

«هو الحق، ومايشاء بعباده فهو الحق. سبحانه له الأسماء الحسنى، وتبارك اسمه الحق، وتعالى علواً كبيرا

«ينازعني وسواس الغي. وأنت المعيذ من شر الوساوس. فاللهم اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم

«ومهما تضللنا النزعات وتزين لنا الشهوات. فالنفس التي لاتذهب في الغي شعاعا ولا تضيع ضياعا، لاتلبث بالادخار والآباء أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء

«وللناس في ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير: هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه. كذلك الحياة عجيبة التركيب. فاشكر ربك إذا بليت. واشكر ربك إذا عوفيت

منن أربع

لكيما يسعد العرب في البيداء، راتعين في بحبوحة الفضاء، أولاهم المولى ذو الخير العميم منا أربعا:

اولى هذه المنن: العمامة. وهي زينة أروع من التيجان كافة. ثم خيمة يتحملونها من مكان إلى مكان، حتى ليعمروا كل مكان. ثم حسام بتار هو أمنع من الحصون وشاهق الأسوار. ثم القصيد يؤنس ويفيد، ويسترعي أسماع الخرد الغيد)

الحرية

«دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح، وابقوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر! إنني لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع، وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر

وما زينت السماء الدنيا بمصابيح، إلا هدى للناس في البر والبحر ولتكون متعة للناظرين أبد الدهر كلما ولوا وجوههم قبلة السماء»

عناصر الشعر

«كم العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاء العامة ويلذ سماعه الخاصة؟

«إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم. فان الحب إذا مازج الشعر

زاد نبراته حلاوة وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتتلألأ فيه كميت الخمر كالياقوت فانما العشاق والندامى هم وحدهم من ترتاح لهم وتهش لمجلسهم

كذلك يطيب في الشعر سماع صلصلة السيوف ودوى النفير ولجب الوغى حتى إذا انجلى الحظ أبلج أزهر دان الناس للبطل ، وغدا بينهم مؤلها بما أصاب من النصر المؤزر

« ولا معدى للشاعر في آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى والتعرض لها بالهجاء . فما كان لمثله أن يلقى القبيح المشنوء . بمثل ما يلقى الحسن المستحب .

« فاذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة . فقد أشاع البهجة والحياة بين الورى أجمعين . إلى أبد الآبدين

أسير :

(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل ، قوام سبط ، وأعطاف بضة لينة ، كأنما هي لحورية من جنة النعيم .

(أكانت هنا حقا ؟ وأين مضت ؟ أجل ، هي بعينها التي جادت بهذا كله ، هي التي سمحت ثم ولت هاربة . لقد تيمتني وتركتني ها حييت أسيرها)

كتاب مطالعة :

(سفر ما أعجبه بين الأسفار ! ذلك سفر العشق . لقد أمعنت في مطالعته . بضع صفحات من اللذة ، وأبواب مستفيضة في الألم . اختص الفراق بجزء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجيز . على مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيلة بحواش لا حصر لها ولا آخر)

سلام :

(واها ! ما أسعدني ! ... كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر في طريقي ، وكانت بغيتي البحث هنا وهناك عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضني الهدهد في اختيال ناشرا تاجه متبخترا في هيئة المدل الساخر ، وإنه لسخر الحي بالميت . فقلت له : يا هدهد ! في الحق إنك لطائر جميل . إنطلق يا هدهد وبلغ حبيبتي أني لها وملك يمينها ما حييت . وكذلك كنت يا هدهد من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبا ،

(فقال الهدهد : إن التي أنت موفدي لها ، قد أودعتني كامل سرها ، في نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا أغبطك على سعادتك . فأنت محب وأنت محبوب . ودوام الحب الزاهر مقترناً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)

قارورة العطر

(لكي يتحبب اليك المحب بالعطر العبق ، ويزيد في انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . فلا بد له من عالم منها ليستقطر منها قارورة صغيرة ، قارورة مخروطة مستدقة كأناملك لكي تهدى اليك ، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسنا ويزيد في متاعنا ! هيهات . وكم هلكت أنفس لا عداد لها في سبيل عظمة تيمور)

لذة الإحسان

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمز بطرفها . ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى وهو يحتسي كأسه . وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه . وشعاع الشمس في الخريف ينعشك بدفئه . فليكن أحلى من هذه جميعاً في نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد بها كف الفقير في طلب الصدقة ، وتتلقى منك بالحمد الجميل ما تجود به . فما أحلاها وقتئذ نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة في السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام .

مثل الإيمان

تحدرت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة ، فأنحت عليها الأمواج خفقاً وضربا . ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيرا . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما . فاحتوتها الصدفة في حرز حريز . وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج الشاه درة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء

الدين

من الحماقة التعصب للدين . واذا كان الاسلام هو التسليم لله فقد وجب أن نحيا ونموت مسلمين جميعا .

ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد . وان كان في الديوان زيادة للمستزيد . ولكن ضيق المقام يمنع من الافاضة . وفيما تقدم الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربي من الروح الشرقي .

والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وآذنت شمس حياته بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق

وهذا عجيب ، ولكنه من جوته غير عجيب فان ذلكم الرجل العامر بالحياة كان حتى ساعة أن حضرته الوفاة مولعاً بكل مطلع للنور حسيا كان أو روحيا . وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الأستار ، وعيناه إلى النافذة وهو يتمتم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير : المزيد من النور ! المزيد من النور

عبد الرحمن صدقي